٨ مشاهدة صور

سوى التكلف واعلم ان مضمون الايتين هو الامر بعبادة الله تعالى والنهي عن الاشراك به والاشارة الى ما هو العلة والمقتضي بيانه انه رتب الامر بالعبادة على صفة الربوبية اشعارا بانها العلة لوجوبها ثم بين ربوبيته بانه خالقهم وخالق اصولهم وما يحتاجون اليه في معاشهم من المقلة والمظلة والمطاعم والملابس فان الثمرة اعم من المأكول والمشروب ثم لما كانت هذه الامور لا يقدر عليها غيره شاهدة على وحدانيته رتب عليها النهي عن الاشراك به ولعله سبحانه وتعالى اراد من الاية الاخيرة مع ما دل عليه الظاهر وسيق فيه الكلام الاشارة الى تفصيل خلق الانسان وما افاض عليه من المعاني والصفات على طريقة التمثيل فمثل البدن بالارض والنفس بالسماء والعقل بالماء وما افاض عليه من الفضائل العملية والنظرية المحصلة بواسطة استعمال العقل للحواس وازدواج القوى النفسانية والبدنية بالثمرات المتولدة من ازدواج القوى السماوية الفاعلة والارضية المنفعلة بقدرة الفاعل المختار فان لكل آية ظهرا وبطنا ولكل حد مطلعا

وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة لما قرر وحدانيته وبين الطريق الموصل الى العلم بها ذكر عقيبه ما هو الحجة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن المعجز بفصاحته التي بذت فصاحة كل منطيق وافحام من طولب بمعارضته من مصاقع الخطباء من العرب العرباء مع كثرتهم وافراطهم في المضادة والمضارة وتهالكهم على المعازة والمعارة وعرف ما يتعرف به اعجازه ويتيقن انه من عند الله كما يدعيه وانما قال مما نزلنا لان نزوله نجما فنجما بحسب الوقائع على ما يرى عليه اهل الشعر والخطابة مما يريبهم كما حكى الله عنهم وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة فكان الواجب تحديهم على هذا الوجه ازاحة للشبهة والزاما للحجة واضاف العبد الى نفسه تنويها بذكره وتنبيها على انه مختص به منقاد لحكمه وقرئ عبادنا يريد محمدا وامته والسورة الطائفة من القرآن المترجمة التي اقلها ثلاث آيات وهي ان جعلت واوها اصلية منقولة من سور المدينة لانها محيطة بطائفة من القرآن مفرزة محوزة على حيالها او محتوية على انواع من العلم احتواء سور المدينة على ما فيها او من السورة التي هي الرتبة قال ولرهط حراب وقد سورة في المجد ليس غرابها بمطار لان السور كالمنازل والمراتب يترقى فيها القارئ او لها مراتب في الطول والقصر والفضل والشرف وثواب القراءة وان جعلت مبدلة من الهمزة فمن السؤرة التي هي البقية والقطعة من الشيء والحكمة في تقطيع القرآن سورا افراد الانواع وتلاحق الاشكال وتجاوب النظم وتنشيط القارئ وتسهيل الحفظ والترغيب فيه فانه اذا ختم سورة نفس ذلك منه كالمسافر اذا علم انه قطع ميلا او طوى بريدا والحافظ متى حذقها اعتقد انه اخذ من القرآن حظا تاما وفاز بطائفة محدودة مستقلة بنفسها فعظم ذلك عنده وابتهج به الى غير ذلك من الفوائد **من مثله** صفة سورة اي بسورة كائنة من مثله والضمير لما نزلنا ومن للتبعيض او للتبيين وزائدة عند الاخفش اي بسورة مماثلة للقرآن في البلاغة وحسن النظم او لعبدنا ومن للابتداء اي بسورة كائنة ممن هو على حاله من كونه بشرا اميا لم يقرأ الكتب ولم يتعلم العلوم او صلة فأتوا والضمير للعبد والرد الى المنزل اوجه لانه المطابق لقوله فأتوا بسورة مثله ولسائر آيات التحدي ولان الكلام فيه لا في المنزل عليه فحقه ان لا ينفك عنه ليتسق الترتيب والنظم ولان مخاطبة الجم الغفير بان يأتوا بمثل ما اتى به واحد من ابناء جلدتهم ابلغ في التحدي من ان يقال لهم ليأت بنحو ما اتى به هذا آخر مثله ولانه معجز في نفسه لا بالنسبة اليه لقوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولان رده الى عبدنا يوهم امكان صدوره ممن لم يكن على صفته ولا يلائمه قوله

وادعوا شهداءكم من دون الله فانه امر بان يستعينوا بكل من ينصرهم ويعينهم والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر او القائم بالشهادة او الناصر او الامام وكانه سمي به لانه يحضر النوادي وتبرم بمحضره الامور اذ التركيب للحضور اما بالذات او بالتصور ومنه قيل للمقتول في سبيل الله شهيد لانه حضر ما كان يرجوه او الملائكة حضروه ومعنى دون ادنى مكان من الشيء ومنه تدوين الكتب لانه ادناء البعض من البعض ودونك هذا اي خذه من ادنى مكان منك ثم استعير للرتب فقيل زيد دون عمرو اي في الشرف ومنه الشيء الدون ثم اتسع فيه فاستعمل في كل تجاوز حد الى حد وتخطي امر الى امر قال الله تعالى لا يتخذ المؤمنون الكافرين اولياء من دون المؤمنين اي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين الى ولاية الكافرين وقال امية يا نفس ما لك دون الله من واق اي اذا تجاوزت وقاية الله فلا يقيك غيره ومن متعلقة بادعوا والمعنى وادعوا للمعارضة من حضركم او رجوتم معونته من انسكم وجنكم وآلهتكم غير الله فانه لا يقدر على ان يأتي بمثله الا الله او وادعوا من دون الله شهداء يشهدون لكم بان ما اتيتم به مثله ولا تستشهدوا بالله فانه من ديدن المبهوت العاجز عن اقامة الحجة او بشهداءكم الذين تزعمهم من دونه اولياء او آلهة وزعمتم انها تشهد لكم يوم القيامة او الذين يشهدون لكم بين يدي الله تعالى على زعمكم من قول الاعشى تريك القذى من دونها وهي دونه ليعينوكم وفي امرهم ان يستظهروا بالجماد في معارضة القرآن غاية التبكيت والتهكم بهم وقيل من دون الله اي من دون اوليائه يعني فصحاء العرب ووجوه المشاهد ليشهدوا لكم ان ما اتيتم به مثله فان العاقل لا يرضى لنفسه ان يشهد بصحة ما اتضح فساده وبان اختلاله **ان كنتم صادقين** انه من كلام البشر وجوابه محذوف دل عليه ما قبله والصدق الاخبار المطابق وقيل مع اعتقاد المخبر انه كذلك عن دلالة او امارة لانه تعالى كذب المنافقين في قولهم انك لرسول الله لما لم يعتقدوا مطابقته ورد بصرف التكذيب الى قولهم نشهد لان الشهادة اخبار عما علمه وهم ما كانوا عالمين به **فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة** لما بين لهم ما يتعرفون به امر الرسول وما جاء به وميز لهم الحق من الباطل رتب عليه ما هو كالفذلكة له وهو انكم اذا اجتهدتم في معارضته وعجزتم جميعا عن الاتيان بما يساويه او يدانيه ظهر انه معجز والتصديق به واجب فآمنوا به واتقوا العذاب المعد لمن كذب فعبر عن الاتيان المكيف بالفعل الذي يعم الاتيان وغيره ايجازا ونزل لازم الجزاء منزلته على سبيل الكناية تقريرا للمكنى عنه وتهويلا لشأن العناد وتصريحا بالوعيد مع الايجاز وصدر الشرطية بان التي للشك والحال يقتضي اذا الذي للوجوب فان القائل سبحانه لم يكن شاكا في عجزهم ولذلك نفى اتيانهم معترضا بين الشرط والجزاء تهكما بهم او خطابا معهم على حسب ظنهم فان العجز قبل التأمل لم يكن محققا عندهم وتفعلوا جزم بلم لانها واجبة الاعمال مختصة بالمضارع متصلة بالمعمول ولانها لما صيرته ماضيا صارت كالجزء منه وحرف الشرط كالداخل على المجموع وكانه قال فان تركتم الفعل ولذلك ساغ اجتماعهما ولن كلا في نفي المستقبل غير انه ابلغ وهو حرف مقتضب عند سيبويه والخليل في احد الروايتين عنه وفي الرواية الاخرى اصله لا ان وعند الفراء لا ابدلت الفها نونا والوقود بالفتح ما يوقد به النار وبالضم المصدر وقد جاء المصدر بالفتح

ولا يجوز ان يقال فأتوا بسورة هو المذكور جوابه بان الجزاء لا يتقدم على الشرط عند [illegible] دلالة

قال سيبويه وسمعنا من يقول وقدت النار وقودا عاليا والاسم بالضم ولعله مصدر سمي به كما قيل فلان فخر قومه وزين بلده وقد قرئ به والظاهر ان المراد به الاسم وان اريد المصدر فعلى حذف مضاف اي وقودها احتراق الناس والحجارة وهي جمع حجر كجمالة جمع جمل وهو قليل غير منقاس والمراد بها الاصنام التي نحتوها وقرنوا بها انفسهم وعبدوها طمعا في شفاعتها والانتفاع بها واستدفاع المضار لمكانتهم ويدل عليه قوله تعالى انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم عذبوا بما هو منشأ جرمهم كما عذب الكانزون بما كنزوه او بنقيض ما كانوا يتوقعون زيادة في تحسرهم وقيل الذهب والفضة التي كانوا يكنزونها ويغترون بها وعلى هذا لم يكن لتخصيص اعداد هذا النوع من العذاب بالكفار وجه وقيل حجارة الكبريت وهو تخصيص بغير دليل وابطال المقصود اذ الغرض تهويل شأنها وتفاقم لهبها بحيث تتقد بما لا يتقد به غيرها والكبريت تتقد به كل نار وان ضعفت فان صح هذا عن ابن عباس رضي الله عنه فلعله عنى به ان الاحجار كلها لتلك النار كحجارة الكبريت لسائر النيران ولما كانت الآية مدنية نزلت بعدما نزل بمكة قوله تعالى في سورة التحريم نارا وقودها الناس والحجارة وسمعوه صح تعريف النار ووقوع الجملة صلة فانها يجب ان تكون قصة معلومة **اعدت للكافرين** هيئت لهم وجعلت عدة لعذابهم وقرئ اعتدت من العتاد بمعنى العدة والجملة استئناف او حال باضمار قد من النار لا الضمير الذي في وقودها وان جعلته مصدرا للفصل بينهما بالخبر وفي الآيتين دليل على النبوة من وجوه الاول ما فيهما من التحدي والتحريض على الجد وبذل الوسع في المعارضة بالتقريع والتهديد وتعليق الوعيد على عدم الاتيان بما يعارض اقصر سورة من سور القرآن ثم انهم مع كثرتهم واشتهارهم بالفصاحة وتهالكهم على المضادة لم يتصدوا لمعارضته والتجأوا الى جلاء الوطن وبذل المهج والثاني انهما يتضمنان الاخبار عن الغيب على ما هو به فانهم لو عارضوه بشيء لامتنع خفاؤه عادة سيما والطاعنون فيه اكثر من الذابين عنه في كل عصر والثالث انه عليه السلام لو شك في امره لما دعاهم الى المعارضة بهذه المبالغة مخافة ان يعارض فتدحض حجته وقوله اعدت للكافرين دل على ان النار مخلوقة معدة لهم الآن **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ان لهم جنات** عطف على الجملة السابقة والمقصود عطف حال من آمن بالقرآن ووصف ثوابه على حال من كفر به وكيفية عقابه على ما جرت به العادة الالهية من ان يشفع الترغيب بالترهيب تنشيطا لاكتساب ما ينجي وتثبيطا عن اقتراف ما يردي لا عطف الفعل نفسه حتى يجب ان يطلب له ما يشاكله من امر او نهي فيعطف عليه او على فاتقوا لانهم اذا لم يأتوا بما يعارضه بعد التحدي ظهر اعجازه واذا ظهر ذلك فمن كفر به استوجب العقاب ومن آمن به استحق الثواب وذلك يستدعي ان يخوف هؤلاء ويبشر هؤلاء وانما امر الرسول عليه السلام او عالم كل عصر او كل احد يقدر على البشارة بان يبشرهم ولم يخاطبهم بالبشارة كما خاطب الكفرة تفخيما لشأنهم وايذانا بانهم احقاء بان يبشروا ويهنأوا بما اعد لهم وقرئ وبشر على البناء للمفعول عطفا على اعدت فيكون استئنافا والبشارة الخبر السار فانه يظهر اثر السرور في البشرة ولذلك قال الفقهاء البشارة هو الخبر الاول حتى لو قال الرجل لعبيده من بشرني بقدوم ولدي فهو حر فاخبروه فرادى عتق اولهم ولو قال من اخبرني عتقوا جميعا واما قوله فبشرهم بعذاب اليم فعلى التهكم او على طريقة قوله تحية بينهم ضرب وجيع والصالحات جمع صالحة وهي من الصفات الغالبة التي تجري مجرى الاسماء كالحسنة قال الحطيئة كيف الهجاء وما تنفك صالحة من آل لام بظهر الغيب تأتيني وهي من الاعمال ما سوغه الشرع وحسنه وتأنيثها على تأويل الخصلة او الخلة واللام فيها للجنس وعطف العمل على الايمان مرتبا للحكم عليهما اشعارا بان السبب في استحقاق هذه البشارة مجموع الامرين والجمع بين الوصفين فان الايمان الذي هو عبارة عن التحقيق والتصديق اس والعمل الصالح كالبناء عليه ولا غناء باس لا بناء عليه ولذلك قلما ذكرا منفردين وفيه دليل على انها خارجة عن مسمى الايمان اذ الاصل ان الشيء لا يعطف على نفسه ولا على ما هو داخل فيه ان لهم منصوب بنزع الخافض وافضاء الفعل اليه او مجرور باضماره مثل الله لافعلن والجنة المرة من الجن وهو مصدر جنه اذا ستره ومدار التركيب على الستر سمي به الشجر المظلل لالتفاف اغصانه للمبالغة كانه يستر ما تحته سترة واحدة قال كان عيني في غربي مقتلة من النواضح تسقي جنة سحقا اي نخلا طوالا ثم البستان لما فيه من الاشجار المتكاثفة المظللة ثم دار الثواب لما فيها من الجنان وقيل سميت بذلك لانه ستر في الدنيا ما اعد فيها للبشر من افنان النعم كما قال الله تعالى فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة اعين الآية وجمعها وتنكيرها لان الجنان على ما ذكره ابن عباس سبع جنة الفردوس وجنة عدن وجنة النعيم ودار الخلد وجنة المأوى ودار السلام وعليون وفي كل واحدة منها مراتب ودرجات متفاوتة على حسب تفاوت الاعمال والعمال واللام تدل على استحقاقهم اياها لاجل ما ترتب عليه من الايمان والعمل الصالح لا لذاته فانه لا يكافئ النعم السابقة فضلا عن ان يقتضي ثوابا وجزاء فيما يستقبل بل بجعل الشارع ومقتضى وعده ولا على الاطلاق بل بشرط ان يستمر عليه حتى يموت وهو مؤمن لقوله تعالى ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فاولئك حبطت اعمالهم وقوله تعالى لنبيه عليه السلام لئن اشركت ليحبطن عملك واشباه ذلك ولعله سبحانه لم يقيد هاهنا استغناء بها **تجري من تحتها الانهار** اي من تحت اشجارها كما تراها جارية تحت الاشجار النابتة على شواطئها وعن مسروق انهار الجنة تجري في غير اخدود واللام في الانهار للجنس كما في قولك لفلان بستان فيه الماء الجاري او للعهد والمعهود هي الانهار المذكورة في قوله تعالى فيها انهار من ماء غير آسن الآية والنهر بالفتح والسكون المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات والتركيب للسعة والمراد بها ماؤها على الاضمار او على المجاز او المجاري انفسها واسناد الجري اليها مجاز كما في قوله تعالى واخرجت الارض اثقالها **كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا** صفة ثانية لجنات او خبر مبتدأ محذوف او جملة مستأنفة كانه لما قيل ان لهم جنات وقع في خلد السامع أثمارها مثل ثمار الدنيا او اجناس اخر فازيح بذلك وكلما نصب على الظرف ورزقا مفعول به ومن الاولى والثانية للابتداء واقعتان موقع الحال واصل الكلام ومعناه كل حين رزقوا مرزوقا مبتدأ من الجنات مبتدأ من ثمرة قيد الرزق بكونه مبتدأ من الجنات وابتداؤه منها بابتدائه من ثمرة فصاحب الحال الاولى رزقا وصاحب الثانية ضميره المستكن في الحال ويحتمل ان يكون من ثمرة بيانا تقدم كما في قولك رأيت منك اسدا وهذا اشارة الى نوع ما رزقوا كقولك مشيرا الى نهر جار هذا الماء لا ينقطع فانك لا تعني به العين المشاهد منه بل النوع

اذا حفظ هذا فالآية الكريمة